

مقدمة المؤلف

الحمد لله على آلائه ، والصلاة والسلام على أنبيائه ، « وبعد » فهذه شذرة نذرة ،
وغيض من فيض ، عن التصوير عند العرب ، كنت نشرتها في مجلة الهلال الغراء ،
وأعجلني الوقت فيها عن التوسع والاستقصاء ، فاكثفت حينئذ بما أثبتته الخاطر ، وعلق
بالذاكرة ، على حد ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلّه ، ثم ظفرت بعد ذلك بزيادات
فضممتها إليها .

وقد بدأت فيها بأنواع التصوير ، فذكرت منها ما كان في الثياب والستور والخيام
والجدران والآنية والأثاث والسلاح والنقود والبنود والشارات والكتب والصحف
والألواح . ثم أتبعتها بذكر التماثيل وما كان منها بالشرق والمغرب ، وأتيت بعد ذلك على
ما عثرت عليه من أسماء المصورين . وفي هذا الفصل ما يدحض قول القائلين بقصور
العرب في هذا الفن البديع .

وقد اعتمدت في كثير مما ذكرته على الشواهد الشعرية ، لأنني وجدت الشعر أصدق
قيلاً ، وأفصح بياناً في هذه المواضيع ؛ فالشاعر إذا وصف ، فإنما يصف شيئاً موجوداً وقع
عليه نظره ، فرواه لنا كما رآه ، ولأنه يجتهد في تقريبه للأذهان فيصور من دقائقه في شعره
ما لا تصوره عبارة أخرى ، لا يقصد منها إلا رواية خبر ربما لا يهم راويه إلا ذكر جملة
دون تفصيله .

ثم لا يخفى على من عانى أمثال هذه المباحث اعتياص هذا الموضوع ، والتواؤم على
مُحاوَله ؛ لتشتته بين تضاعيف الأسفار بعد ذهاب ما كُتب عنه ، وُجِع فيه . فلا غَرَو أن
يعد صغيره كبيراً ، ويسيره كثيراً ، وألا يستهان بما يظفر به منه ؛ فإنه إن لم ينقع غُلّة ،
ويصرح عن الحض ، فلا أقل من أن يتخذ أساً يبنى عليه .

التصوير على الجدران

كان التصوير على الجدران معروفاً عند العرب في الجاهلية^(١) والإسلام ، لم تخل منه أخبارهم وأشعارهم . وكانت الكعبة المكرمة مصورة الجدران في الجاهلية ، تعظم صورها وتمثالها تعظيم عبادة^(٢) . فلما فتحت مكة أزيلت تلك الصور . ذكر ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة» أن النبي عليه الصلاة والسلام بعث عمر بن الخطاب ومعه عثمان ابن طلحة ، وأمره أن يفتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالاً إلا محاه ، فأزالها ، وترك صورة إبراهيم عليه السلام ، فأمره بمحوها* ، وقال : «قاتلهم الله ! جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام» .

وذكر أيضاً في رواية ، عن أسامة بن زيد ، أنه قال : دخلت مع رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، الكعبة فرأى فيها صوراً ، فأمرني أن آتيه في دلو بماء ، فجعل يبسل الثوب ويضرب به الصور ، ويقول : «قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون» . وذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ، في شرح غزوة الفتح ما يستفاد منه أن بقية بقيت من تلك الصور لحفائها على من محاها .

وروى عن ابن عائذ في المغازي أن صورتي عيسى وأمه عليهما السلام بقيتا حتى رأهما من أسلم من نصارى غسان ، فقال : إنكما لبيلاد غريبة ، فلما هدم ابن الزبير البيت ذهبتا ، فلم يبق لهما أثر^(٣) .

ثم روى بعد ذلك عن ابن جريج أن بعضهم أدرك في الكعبة تمثال مريم عليها السلام ، وفي حجرها ابنها مزوقاً ، وكان ذلك في العمود الأوسط الذي يلي الباب ، ثم ذهب في الحريق . قلنا والمراد بالتمثال هنا الصورة المنقوشة لا الخروطة بدليل قوله مزوقاً على العمود أي مصوراً بالدهان .

(*) سبأني في الكلام على التماثيل أن هذه الصورة كانت تمثالاً مخروطاً ؛ فالمراد بالخو هنا مطلق الازالة بحك ما كان مدهونا وغسله ، وإتلاف ما كان ذا ظل .

وفي باب التصاوير من «صحيح البخارى» ، عن مسلم* أنه قال : كنا مع مسروق في دار يسار بن نُمَيْر ، فرأى في صفته تماثيل ، فقال : سمعت عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون » .
والمراد هنا بالتماثيل أيضاً الصور المنقوشة بالدهان على جدران الصفة على ما يفهم من شروح الصحيح المذكور .

وعثر المنقبون من الإفرنج في آثار اليمين على نقوش في الجدران فيها صور أناس يمانين ؛ بين رجالة وفرسان ، ومتقربين بالضحايا للأوثان^(٤) .

وذكر الهمداني في «الإكليل» في كلامه على رثام أنه كان أمام قصر أحد ملوك اليمين حائط فيه بلاطة فيها صورة الشمس والهلal^(٥) ؛ فإذا خرج الملك ورآها كفر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه ، ثم يخزّ بذقنه عليها^(٦) . وذكر في موضع آخر من هذا الكتاب قصراً كان قديماً بتدمر ، مصوّر الحيطان^(٧) ، وأورد قصيدة في وصفه ، تنسب للنابغة ، وليست له ، ذكر فيها أنواع هذه الصور ؛ من فرسان مدجّجين ، وصنوف من الحيوان كالثعالب والقبيلة والأسود وغيرها ، منعنا كثرة ما بها من التحريف من إيرادها هنا .

وأشد صاحب لسان العرب في وصف بيت مصوّر بأنواع التصاوير :

ففيه الغواة مصورو ن فحاجل منهم وراقص
والفيل يرتكب الردا ف عليه والأسد القاصص^(٨)

وفي كتاب «الفرج بعد الشدة» للمتنوخى أن عبيد الله بن زياد لما بنى داره البيضاء بالبصرة بعد قتل الحسين رضى الله عنه صوّر في بابها رؤساً مقطّعة ، وصور في دهليزها أسداً وكلباً وكبشاً ، وقال : أسد كالح ، وكبش ناطح ، وكلب نابح ؛ فمرّ بالباب أعرابي ، فقال : أما إن صاحبها لا يسكنها إلا ليلة ؛ فضربه وحبسه . ووثب الناس بابن زياد فهرب من داره في ليلته تلك ، وكسروا الحبس ، ونفّرج الأعرابي ولم يعد ابن زياد إلى داره^(٩) .
وذكر المقدسي في «أحسن التقاسيم» أن جدران المسجد الأموى بدمشق كانت مكسوة

(*) هو ابن صبيح أبو الضحى ، وهو بكنيته أشهر كما في «فتح البارى» .

بالرخام المجزّع إلى قامتين ، ثم بالفُسَيْفَسَاءِ الملوّنة المذهبة إلى السقف^(١٠) ، وفيها صور أشجار ، وأمصار ، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة ، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان^(١١) .

وحكى البدرى فى « نزهة الأنام فى محاسن الشام » عن بعض المؤرخين أن الرخام كان فى جدران هذا المسجد سبع وزرات ، ومن فوقه صفات البلاد والقرى ، وما فيها من العجائب^(١٢) ، وأن السكبة المشرفة وضعت صفتها فوق الحراب^(١٣) ، ثم فرقت البلاد يمينا وشمالا ، وما بينها الأشجار المثمرة والمزهرة ، وغير ذلك . ولا نعلم إن كانت هذه الصور من عمل العرب فتدخل فيما قصدناه ، أم من عمل صنّاع الروم الذين استعان بهم الوليد ابن عبد الملك عند بناء المسجد^(١٤) .

ولبعض الحديثين قصيدة فى وصف هذا المسجد أوردها ابن عساكر فى « تاريخ دمشق »^(١٥) ، والنويرة فى « نهاية الأرب » ، يقول فيها فى وصف الصور :

إذا تفكرت فى الفصوص وما	فيها تيقنت حذق واضعها
أشجارها لا تزال مشمرة	لا ترهب الريح فى مدافعها
كأنها من زمرد غُرست	فى أرض تهر تُعشى بفاعها
فيها ثمار كأنها ينعت	وليس يُخشى فساد يانعها
تقطف بالاحظ لا بجارحة الأيد	يدى ولا تجتنى لبائعها ^(١٦)

وذكر أبو هلال العسكري فى الباب العاشر من « الصناعتين » فى كلامه على ما ينبغى الاحتراز منه فى مفتتح القصائد ، أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان ، جاس فيه جمع الناس من أهله وأصحابه ، وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج ، وجعل سريريه فى الإيوان المنقوش بالفُسَيْفَسَاءِ الذى كان فى صدره صورة العنقاء . فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر ، وجعل على رأسه التاج الذى فيه الدرّة اليتيمة ، وفى الإيوان أسرة من آبنوس عن يمينه ، وعن يساره من عند السرير الذى عليه المعتصم إلى باب الإيوان . فكلما دخل رجل رتبته هو بنفسه فى الموضع الذى يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذنه إسحق بن إبراهيم فى الشيد ، فأذن له ، فأنشده شعراً ما سمع الناس

أحسن منه في صفته ، وصفة المجلس ، إلا أن أوله تشيب بالديار القديمة وبقية آثارها ، فكان أول بيت منها :

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم منها ، وتغامر الناس ، وعجبوا كيف ذهب هذا على إسحق ، مع فهمه وعلمه وطول خدمته الملوك .

وجاء في مجلة لغة العرب (١ : ٨١ - ٩٤) ، التي تصدر في بغداد ، وصف للتنقيب الذي قام به الأستاذ هرتسفلد الألماني Herzfeld في آثار «سُرَّ مَنْ رَأَى» التي بناها المعتصم ، ذكرت فيه أنه عثر بين دفائن أطلالها على آثار المسجد الجامع الذي بناه المتوكل ، وشاهد في بقايا الدور غرفاً وأبهاء زينت جدرانها بتصاوير شرقية ؛ بين بارزة وغائرة في الجص وصور ملونة للأدميين وغيرهم ، بديعة المثال ، حافظة لجدها على غير الزمان^(١٧) . قلنا ولا غرابة في ذلك ، فقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أن المتوكل بنى قصراً بسُرَّ مَنْ رَأَى ، سماه بالختار ، كانت فيه صور عجيبة ، منها صورة بيعة فيها رهبان^(١٨) ، وأحسنها صورة شہار البيعة ؛ وهو الذي قيل فيه * :

ما رأينا كهجة المختار لا مثل صورة الشہار
ليس فيه عيب سوى أن ما فيه سيفنيه نازل المقة—دار^(١٩)

ومن قصور المتوكل المصورة قصر البرج ، وسيأتي ذكره في الكلام على التماثيل . ومما يدل على أن مجالس الخلفاء كانت مصورة الجدران ما حكاه ابن الخلطة في «العزیزى الحلى»^(٢٠) عن المهتدى بالله العباسى وتقواه وزهده ومخالفته من تقدمه من الخلفاء في أمور كثيرة ذكرها ، وذكر منها أنه «عمد إلى الصور التي كانت في مجالس الخلفاء فمحاها وأزال تلك الشخصوس المموهة في الحيطان وغيرها»^(٢١) .

(*) في معجم البلدان أن ناظم هذا الشعر الوائق ، ولا يخفى أنه ولى الخلافة قبل المتوكل ، فالظاهر أن المتوكل بنى هذا القصر في خلافة أخيه ، كما ذهب إليه البهائي الفاضل صاحب مجلة لغة العرب في مقال له في مجلة الهلال (٢٧ : ٣٩٤) .

(†) أي المصورة . والنشوية من الألفاظ المولدة ، ويريدون به التصوير والنقش .

ومن ذلك الإيوان الذي بناه المعتمد على الله* في داره ، وفيه يقول أحمد ابن
حمديس الصقلّي :

نسيت به إيوان كسرى لأننى أراه له مولى من الحسن لا مثلاً
كأن سليمان بن داود لم تبسح مخافته للجنّ في صنعه مهــــلاً
ترى الشمس فيه ليقة تستمدّها أ كفّ أقامت من تصاويره شكلاً
لهــــا حركات أودعت في سكونها فما أتعبت في نقلهنّ يدّ رجلاً^(٢٢)
وقال أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز الأندلسي من أبيات يصف فيها قصراً بمصر
يسمى منازل العزّ ، بناه حسن بن تميم بن المعزّ العبیدی^(٢٣) :

وبأرجائه مجــــال طراد ليس تنفكّ من وغيّ خياله
تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للأنز ع بعيداً من قرنه مرماه
وصفوقاً من الوحوش وطير الـ جو كل مستحسن مرآه
سكنات تخالها حركات واختــــلاف كأنه أشباه^(٢٤)

وذكر الشيخ الأكبر في مسامراته عن بعض مشايخ قرطبة : أن سبب بناء
عبد الرحمن الناصر للزهراء ، أن جاريته الزهراء اشتهت أن يبني لها مدينة يسميها باسمها ،
فبناها تحت جبل العروس على ثلاثة أميال من قرطبة ، وجعلها مقره ومقرّ حاشيته ، وسمّاها
باسمها ، ونقش صورتها على بابها^(٢٥) .

وسياتى في الكلام على تماثيل الزهر عند ذكر بستان خمارويه بن أحمد بن طولون
ما اتخذها على جدران قصره من الصور البديعة .

ومن القصور المصورة الجدران ، منظرة بناها الأمر بأحكام الله الفاطمي بركة الحبش
صور فيها شعراء ؛ كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر
في المدح وذكر المنظرة ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل واحد

(*) هو ابن عباد أكبر ملوك الطوائف بالأندلس المتوفى معتقلاً في مدينة أنغمت بالمغرب سنة ٤٨٨ .

رف مذهب أمر أن توضع فيه صرّة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ،
ويأخذ صرته ، ففعلوا ، وكانوا عدة شعراء . كذا في «خطط» المقرئى (٢٦) .

ومن بقايا تصاوير الجدران في العصر الفاطمى لوح حجرى عثروا عليه سنة ١٣٤٥
بالقاهرة ، في مسجد بيبس الجاشنكير (٢٧) ، عليه صور طيور متقابلة على أغصان ملتفة
بديعة الوضع والتصوير ، وقد حفظ بدار الآثار العربية (٢٨) . والمسجد المذكور بنى
في موضع دار الوزارة الكبرى الفاطمية .

ومن الدور المصورة الجدران دار على بن أفلح الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٥٣٣ .
حكى سبط ابن الجوزى في «مرآة الزمان» أن الخليفة المسترشد أعطاه أربع دور في درب
الشاكزية ، فاشترى دوراً إلى جانبها ، وهدم الكل وأنشأها داراً كبيرة ، وأطلق له الخليفة
ما يحتاج إليه من الآلات والخشب وخسمائة دينار ، ورتب له راتباً ، وغرم على الدار
عشرين ألف دينار ، وكان طولها ستين ذراعاً في أربعين ، وأجراها بالذهب ، وصور فيها
فنون الصور (٢٩) .

ومنها دار الملك رضوان بحلب ، وفيها يقول الرشيد عماد الدين عبد الرحمن بن النابلسى
من قصيدة يمدحه بها سنة ٥٨٩ ، ويذكر ما على جدران الدار من الصور :

دار حكمت دارين في طيب ولا	عطرٌ بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها	قطب على فلك السعود يُدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج	غضٌ وورد يانع وبهـار
نور من الأصباغ مبهج ولا	نور وأزهار ولا أزهار

ومنها :

صور ترى ليث العرين تجاهه	فيها ولا يخشى سطاء صوار*
وفوارساً ثبت لظى حرب وما	دُعيت نزالٍ ولم يُشن مغار
وموسدين على أسرة ملكهم	سكرأ ولا خمر ولا خمار

(*) الصوار بضم أوله وكسره : القطيع من البقر .

هذا يعانق عوده طرباً وذا دأباً يقبـل ثغره المزمار

ثم لما تزوج بصفية ابنة عمه الملك العادل وأسكنها في هذه الدار ، وقعت نار عقب العرس ، فاحترقت واحترق جميع ما فيها ، فحْددها ، وسماها دار الشخوص ؛ لكثرة ما كان من زخارفها^(٣٠) . انتهى ملخصاً من « الدر المنخب » ومن « كنوز الذهب في تاريخ حلب »^(٣١) .

ومنها القصر الأباقي الذي بناه الظاهر بيبرس في مرجة دمشق^(٣٢) ، ووصفه ابن طولون في « ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر »^(٣٣) ، فقال : « كان من عجائب الدنيا ، يشرف على الميدان الأخضر شرقيته ، أنشأه الملك الظاهر ركن الدين عقب رجوعه من حجته في الحرم سنة ثمان وستين وستمائة ، كذا رأيت هذا التاريخ أعلى بابه الشمالي وعلى اسكفته^(٣٤) ضرب خيط من رخام أبيض ، ووسطه مكتوب : عمل إبراهيم بن غنائم المهندس ، وبابه الآخر ينفذ إلى الميدان . وفي واجهته البلقاء ثلاثون شباكاً سوى القماری^(٣٥) ، ووسطه قاعة بأربعة لواوين* قبلي وشمالي في صدرها شاذروانان^(٣٦) ، وغربي وشرقي في صدر كل منهما ثلاثة شبابيك ، فالغربيات مطالات على الطريق الآخذ إلى الحمام وتربة الصوفية ، والشرقيات مطالات على الميدان ، وعلى واجهته الشرقية مائة أسد منزلة صورها† ، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض في أسود » انتهى . قلنا إنما صور الظاهر الأسود على واجهتي قصره لأن شعاره كان على صورة أسد^(٣٧) ؛ وإبراهيم بن غنائم كان من كبار مهندسي ذلك العصر^(٣٨) ، وهو الذي تولى بناء الظاهرية بدمشق ، ولم يزل اسمه منقوشاً على بابها إلى اليوم بعبارة « عمل إبراهيم بن غنائم المهندس رحمه الله تعالى » ، يرى ذلك في الزاوية الشمالية من الباب على ارتفاع نحو خمس عشرة ذراعاً .

وفي « خطط » المقریزی أن الأشرف خليل بن قلاوون لما عمر الرفرف بقلعة الجبل جعله

(*) جمع ليوان في اللغة العامية ، وصوابه إيوان ، وجمعه إيوانات وأواوين .

(†) الظاهر أن في العبارة سقطاً وأن الساقط بعد قوله صورها « بأسود في أبيض » كما يؤخذ

عالياً بحيث يشرف على الجيزة كلها، وببَيْضه وصور فيه أمراء الدولة وخواصها، وعقد عليه قبة على عمد، وزخرفها، وصار مجلساً يجلس فيه السلطان إلى أن هدمه أخوه الناصر محمد سنة ٧١٢ (٣٩).

وقال صديقنا الأستاذ البجائي السيد كرد علي في «خطط الشام» : «ومن النقوش الكثيرة التي بقيت محفوظة على بعض مصانع الشهباء نقوش باب أنطاكية وباب النصر، وعلى هذا قطعة من إفريز تمثل كرمه معرشة يركض إلى جانبها أرنب» (٤٠). ثم قال نقلاً عن الشيخ الغزّي : «إن النقاشين في حلب أصناف، منهم من ينقش على الحجر وهم نوابغ البنائين، وفي المباني القديمة كثير من النقوش الحجرية تشهد ببراعة البنائين الحلبيين في القرون الماضية، وتدل دلالة واضحة على نبوغهم بصناعة النقش؛ من ذلك صورتا وجهي أسدين في حجرين مرصوفين في جانبي أحد أبواب قلعة حلب، لا يفرق الناظر إليهما في أول وهلة بين ملاحظهما، فإذا أمعن النظر فيهما تبين له أن وجه أحدهما يضحك ووجه الآخر يبكي، مما دلّ على براعة النقاش» (٤١).

ومن آيات الصناعة العربية ومدھشها ما كان مصوراً على جدران حمام بناء ببغداد شرف الدين هارون ابن الوزير شمس الدين الجويني، فإنه لم يقتصر على إبداع نقشه وتذهيبه، وفرش أرضه بالفصوص الملونة البديعة التنسيق حتى صقل جدرانها وصور عليها الصور المتقنة الحاككة للآدميين بالألوان الزاهية، وطلّى أنابيبه بالفضة والذهب واتخذ لها صنادير على هيئة الطير كلما خرج منها الماء صوتت (٤٢).

ومن الحمامات المصورة حمام سيف الدين بدمشق، وفيه يقول عمر بن مسعود الحلبي الشهير بالحمار من قصيدة* (٤٣) :

وخط فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطق

(*) ديوانه بالخزانة البلدية بالاسكندرية، وله ترجمة في «فوات الوفيات» لابن شاكر، جاء بها أنه توفي بدمشق سنة ٧٠٠، وورد لقبه في النسخة البولاقية محرفاً بالمجان، وترجه السيد محمد أمين المدني ترجمة مختصرة في طبقاته جاء لقبه فيها الحمار وهو الموافق لما في ديوانه، وترجه ابن تغري بردي في «المملوك الصافي» فقال : توفي بعد سنة ٧٠٠ إما إحدى عشرة أو اثني عشرة وسبعمائة.

ومثل الأشجار في لونها ولينها لو أنها تورق
أطيارها من فوق أغصانها بودها تنطق أو تزرق
وهيئة الملك وسلطانة وجيشه من حوله يحدق
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

ووقفت في كتاب «حدائق النعمان في الكلام على ما يتعلق بالحمام»^(٤٤) لشهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الخيمي الكوكباني من علماء القرن الثاني عشر على فصل يدل ما فيه على أن تصوير جدران الحمامات لم يكن بالنادر المستغرب عندهم ؛ بل كان كثير الشيوع حتى لهج بإنكاره فريق من العلماء ، وهو رأي المؤلف أيضاً ونص ما فيه : ” قال الحكماء وينبغي أن يكون مَسْلُخُ الحمام ، أى مخلعه الذى تخلع فيه الثياب عن الأبدان لطيف الصنعة ، واسع الفضاء ، وأن تكون فيه التصاوير من الصور اللطيفة الأنيفة كالأشجار والأزهار والأشكال الحسنة والعجائب من الأسلحة ونحوها ؛ لأجل تحصيل الراحة بالنظر فيها عند الاتكاء ، وقد حُلِّلَ الحمام القوى ؛ لأن المسلخ إذا كان كذلك كان موافقاً للقوى الثلاث ؛ لأن التحليل واقع فيها بما فيه مما ذكر ؛ فالأشجار ونحوها للنفسية ، والأسلحة للحيوانية ، والثمار للطبيعية^(٤٥) ، فلا شك في أن الحمام آخذ من القوى محلل بلا لبس ، وخصوصاً إذا طال المقام فيه ، والنظر في الأشياء المذكورة منعش مقوٍ . هكذا قال الحكماء : والذى أقوله : إنهم إن أرادوا بالأشكال الحسنة صور الحيوانات الممثلة في جدران الحمام فذلك من المنكرات التى تجب إزالتها عند العلماء وأهل الورع . قال الإمام أحمد بن حنبل : إن الإنسان إذا دخل الحمام ورأى فيه صورة فينبغي أن يحكمها فإن لم يقدر خرج . وقال الإمام الغزالي -رضى الله عنه- فى كتاب «الإحياء» عند ذكر منكرات الحمام* ما لفظه ونصّه : منها «الصور على باب الحمام أو داخل الحمام ، فذلك منكر تجب إزالته على كل من يدخله إن قدر عليها ؛ فإن كان الموضع مرتفعاً لا تصل إليه يده ، فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة ، فليعدل إلى حمام آخر فإن مشاهدة

(*) ورد ذلك فى الباب الثالث من كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الكتاب التاسع من ربيع العادات من إحياء علوم الدين .

المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ، ولا يمنع من تصوير الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان » . انتهى كلامه رحمه الله تعالى . وقال الإمام يحيى بن حمزة عليه السلام في « كتاب التصفية »^(٤٦) عند ذكر الخمس الصور من منكرات اللحم ما لفظه : « الصورة الأولى ما يحصل من صور الحيوانات التي هي في جدر الحمام وبيوتها الداخلة والخارجة ؛ فإن ما هذا حاله يجب تغييره ، ويكفي في تغييرها قلع رؤوسها وفصلها وتشويه وجوهها بحيث تبطل صورتها ، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش ؛ فإنها مباحة ، فإن لم يمكن تغييرها ، فإنه يعدل إلى حمّام آخر ؛ فإن مشاهدة المنكر غير جائزة » . انتهى كلام الإمام يحيى صلوات الله عليه وسلامه وانتهى ما وجدته في الكتاب المذكور .

وفي هذا الكتاب من رسالة لمؤلفه ، ركيكة العبارة ظاهرة التكلف كتب بها إلى صديق له يستدعيه إلى حمّام ، ويصف له ما حواه من الزخرف وبديع الصنعة ، يقول فيها في وصف صور الجدران وانعكاس خيالها في ماء بركتها : « في جدرانها صور من حسان الدُمى ، تريق بحسن جفنها من الناظرين الدما . وأشجار كأشجار الحديقة ، تسقيها من تحتها فسقية بأمواه غديقة ، يالها من فسقية قطع العاصر أحجار رخامها ، فهي مرتحة ، وأنق عمارتها بذوات الألوان المختلفة ، فهي مسهّمة ، فترخيمها للتحسين ، ورونة ثابتة على طريقة واحدة من الصفاء ، وإن كان ذا تلوين . كأنها مرآة صقلية الجوانب ، قد وضعت بين يدي الخرد الكواعب . فجميع الصور المصورة في الجدران المنصوبة ، ينظرون فيها نظر الغادة المحبوبة ، فهن يتنافسن على النظر فيها تنافس العشاق على الحبيب ، وينظرون فيها أيتهن الأحسن الأشبه بالظبي الريب . بل أيتهن أجمل وجهاً وأسحر طرفاً ، وأيتهن قد حكّت الغصن المائل من النعمة عطفاً » . انتهى كلامه بنصه وعجره وبجره ، ولولا مكان الاستشهاد على التصوير ما ذكرت منه حرفاً .